موقف الشام من الدراسات النحوية

من نشأتها إلى نهاية القرن السابع الهجرى

بقلم
الدكتور السيد رزق الطويل

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، بلسان عربى مبين ، فأخرج العرب من الظلمات إلى النور ، ويسر ألسنتهم سبيل الشيوع والظهور ، إذ نزل به أهدى كتاب وأقوم دستور .

وبعـــد :

فهذا بحث تاريخى يتناول جانباً من حياة النحو العربى ، ذلك الفن الذى أملته الضرورة ، وفرضته الظروف ، بعد أن اتسعت فتوح الإسلام وتعددت انتصاراته ، فانضوى تحت لوائه أجناس شتى ، وأبناء ألسنة مختلفة ، فانتشرت العجمة واشتد تيار اللحن .

والذى يثير الدهشة أن أبناء اللغات الأخرى نسوا لغاتهم ، وشغلوا بلغة العرب التى أفسدوها بألسنتهم ، يضعون لها القواعد ، ويرسمون لها الضوابط ، ويبذلون الجهد فى سبيل وضع نحوها حتى أصبح النحو - كما كان يسمى — صنعة المولى ، ولعل سر ذلك أنه نحو لغة القرآن الذى تعهد الله بحفظه وصيانته ، وحفظ لغته أقوم طريق للمحافظة عليه .

وفى ظلال الحكومات الإسلامية المتعاقبة بعد حكم الراشدين من أصحاب رسول الله ﷺ نمت علوم ، وابتكرت فنون ، وتنوعت ثقافات ، وكان

النحو أحد هذه العلوم ، نما وترعرع وقوى واشتد فى العراق (البصرة — الكوفة - بغداد) . ثم أخذت الأمصار الإسلامية الأخرى تسهم فى ذلك النشاط تتلقاه من علماء العراق وأعلامه ، ثم يعودون لقومهم لمدارسته وتعليمه .

وهذا البحث دراسة علمية للنشاط النحوى فى بلاد الشام ، ودور الشاميين من أبناء الشام ، أو الوافدين عليه ممن اختاروه وطناً لهم فى دراسته ثم دراسة لبعض النحاة الشاميين ومدارسهم ، واتجاهاتهم إن كانت لهم اتجاهات خاصة تختلف عن الاتجاهات المعروفة للنحاة فى العراق وفى الأمصار الإسلامية الأخرى .

ولهذا عرضت البحث فى ثلاثة فصول تسبقها هذه المقدمة وتعقبها خاتمة .

فى الفصل الأول : تحدثت عن مدى النشاط النحوى فى البلاد الشامية خلال القرون الثلاثة حيث وضع النحو ونما ، ثم نضج واكتمل ، وناقشت فى هذا الفصل بإفاضة أسباب تخلف الدراسات النحوية فى الشام عن البلاد الإسلامية الأخرى .

وفى الفصل الثانى : تتبعت الدراسات النحوية فى الشام وقد تعددت مدارسه ، وكثر المشتغلون به ، واتجه كثير من النحاة إلى الاجتهاد فى إخراج آراء جديدة وإلى دراسة الخلاف ومسائله . واستمر هذا التتبع حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

وفى الفصل الثالث : تناولت الدراسات النحوية فى الشام بعد سقوط بغداد ، ووقفت بذلك عند نهاية القرن السابع حيث انتهى العلماء الأفذاذ الذين يعتد ببحوثهم فى النحو .

وفى الخاتمة : سجلت عدة آراء وملاحظات بدت بمثابة نتائج وأنا أتناول هذه الدراسة .

والذى أعنيه بالشام فى هذا البحث : مراكز الثقافة والعلم فيه ، والتى

كان يؤمها العلماء إذا نزلوا بالشام ، وهي : دمشق وحلب[1] .

وقد تكون هناك مدن شامية أخرى كان لها شرف الإسهام في العلم والثقافة لكنها لم تكن ذات بال ، وبالذات في الدراسات النحوية .

أرجو أن أكون بذلك قد ألقيت شيئاً من الضوء على تاريخ هذا العلم فإن وفقت فالفضل لله وحده ، وإن كانت الأخرى فجل من لا يخطىء سائلا الله التسديد والتوفيق .

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

الباحث

د. السيد رزق الطويل

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات العليا

جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

(١) ضحى الإسلام ج ٢ .

الفصل الأول

مدى النشاط النحوى فى بلاد الشام

حتى نهاية القرن الثالث الهجرى

فى رحاب البصرة كانت المرحلة الأولى من مراحل الدراسة النحوية حيث تم وضع النحو وتكوينه ثم شاركتها الكوفة فى الاحتفاء بهذه الدراسة حيث نما على أيديها وترعرع ، ثم اشتركت معهما بغداد فتم لهذه الدراسة النضج والاكتمال ، وأصبح لذلك العلم فى هذه المراحل أعلام يشار إليهم بالبنان ، ولهم مؤلفات لا تزال للآن محل الاهتمام ، منهم : الكسائى وسيبويه والمبرد ، والفراء ، وقطرب ، وثعلب ، وغيرهم كثيرون . تحفل بهم كتب الطبقات .

وقد انسلخ من عمر التاريخ الهجرى ثلاثة قرون أو يزيد ، ولم يكن النحو شيء يذكر فى بلاد الشام ولا فى غيرها من الأقاليم الأخرى ، والعراق وحدها هى التى استأثرت بهذه الدراسة فى هذه الفترة .

غير أن الأندلس كانت أسبق الأمصار الإسلامية مشاركة فى دراسته فجودى بن عثمان المغربى أول من أدخل كتاب الكسائى بلاد المغرب ، وألف فى النحو ، وتصدر للإفادة توفى بقرطبة سنة ١٩٧ هـ .

ثم كانت مصر بعد الأندلس سباقة لذلك العلم أيضاً ، فالوليد بن محمد التميمى البصرى الأصل والمعروف بولاد ، أول من أدخل كتب النحو إلى مصر ، وأورث النحو أبناءه ، وتوفى بمصر سنة ٢٦٣ هـ .

كل هذا والشام بعيد كل البعد عن الدراسات النحوية برغم قربه من بغداد ، ومن المؤكد أنه كان معبراً عندما كانوا يتجهون إلى بغداد للاستزادة أو يتجهون غرباً إلى مصر والمغرب والأندلس للتعليم والإفادة .

خذ على سبيل المثال : أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدى العدوى النحوى هو وأبيه وجده ، قدم دمشق ، وتوجه غازياً الروم وكان مقرئاً ، مات قبيل سنة ٢٦٠هـ[1] .

وكذلك زيان بن العلاء بن عمار المازنى التميمى ، المعروف بأبى عمرو ابن العلاء ، جاء فى معجم الأدباء ، وفى فوات الوفيات حرف الزاى أنه توفى بالكوفة عائداً من دمشق .

وغيره كثير مروا بالشام مروراً عابراً لهذا الغرض أو لغيره ، ولكن هذا لا يعنى بحال أن هناك نشاطاً نحوياً يعتد به فى بلاد الشام .

وقد يكون من أعجب الأمور أن يتوانى الشاميون عن الإسهام فى النشاط النحوى مع توافد العرب الخلص إليها مع الفاتحين ، شأنها فى ذلك شأن العراق بل إن الشام أكثر صلة بالجزيرة العربية فى عصر ما قبل الإسلام ، أضف إلى ذلك : العلاقة الوثيقة ، والمسافة القريبة بين الشام والعراق ، الأمر الذى كان ينبغى أن يسهل على علماء الشام مشاركة إخوانهم العراقيين فى الدراسات النحوية .

فما الذى جعل العراق يسبق الأقاليم الإسلامية الأخرى ، ويقطع دونها هذا الشوط البعيد ؟

ثم لماذا كان الشام أكثر تأخراً فى هذه الدراسات عن غيره من أقاليم الإسلام ؟

يقول الأستاذ أحمد أمين : « وقد نبت هذا البحث فى العراق ، كما نما جمع اللغة وتدوينها فى العراق ، وكما نشأ الفقه بمعناه الخاص فى العراق »

---

(١) بغية الوعاة ج ١

ولم يكن بالحجاز ولا بغيره من الأمصار شيء يذكر من اللغة والنحو بجانب ما فى العراق[1] .

ويقول أبو الطيب اللغوى : ولا علم للعرب إلا بهاتين المدينتين[2] ، ويعنى بعلم العرب علوم اللغة ، ويعنى بالمدينتين : البصرة والكوفة .

وليس معنى هذا أن الشام كان خالياً من النشاط العلمى كله ، فقد كان فيه حركة علمية ودينية تتدارس القرآن ، وتروى الحديث ، وتستنبط الأحكام وكان نواتها الصحابة والعلماء الذين دخلوا الشام عند الفتح وبعده ، ومركزها مسجد دمشق[3] .

ثم يسجل الأستاذ أحمد أمين هذه الملاحظة التى تتلاقى مع النتيجة التى قررناها فيقول :

« ومما ألاحظه أن اللغة والنحو لم يشترك فى وضع أسسها غير العراق ، فالمصريون والشاميون ساهموا فى القراءات ، وساهموا[4] فى الحديث ، وساهموا فى التاريخ والفقه ، وكان لهم فى ذلك رجال يعدون فى طبقة رجال العراق ، كما رأينا ذلك عند الكلام فى مراكز الحياة العقلية ولكنا - فيما وصل إلينا - لم نجد مصرياً أو شامياً جد فى جمع اللغة وتدوينها فى ذلك العصر ، كما جد عمرو أبو العلاء والخليل الأصمعى ، وأضرابهم مع أن فى مصر عرباً خلصاً كان المصريون يستطيعون أن يدونوا ما يسمعونه عنهم فيكون لهم نصيب فى ذلك ، وقريب منهم بادية الشام ، فيستطيعون أن يخرجوا إليها ، يستمعون لأعرابها ، ويدونون ما سمعوا عنهم كما فعل

---

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) مراتب النحويين .

(٣) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٩٦ .

(٤) هذا تعبير الكاتب ، ولعل الصواب (أسهم)

الأصمعى والكسائى ، وغيرهما ، وربما أفادوا فى ذلك لوناً خاصا أيضا ، ولكنهم لم يفعلوا ، ولم نعلم كم من المصريين والشاميين من وضع حجراً أساسيا فى بناء النحو قد عهدنا تأسيسه ، كما فعل الخليل وسيبويه والفراء ، وقد كان لمصر الليث بن سعد ، وللشام الأوزاعى ، وهما يضارعان فقهاء العراق ، ولكن لم يكن لها أصمعى ، ولا سيبويه فيما نعلم[1] .

والإجابه عن القضية الأولى ـ قضية سبق العراق ـ تتركز فى الأسباب الآتية التى ردهها الباحثون والتى سنناقشها ـ إذا اقتضى الأمر ـ على ضوء ما يتضح لنا من دلائل فى هذا البحث .

السبب الأول :

أن اللغة العربية لم تنتشر فى مصر انتشارها فى العراق ، فعرب أهل مصر لا حاجة لهم بلغة ولا نحو ، وأهل مصر أنفسهم أخذوا يتعلمون اللغة العربية فى العصر الأموى تعلما ابتدائيا ، لا يمكنهم من جمع وابتكار فيها ، فلما نضجوا أو قاربوا النضج كان النحو قد تكون واللغة قد جمعت ، وأما العلوم الأخرى من حديث وتاريخ وتشريع ، فالباعث الدينى كان عندهم فيها أقوى من الباعث اللغوى أو النحوى ، والعرب الذين فى مصر فى حاجة إلى الحديث وما يتبعه من تاريخ وتشريع لا إلى نحوه ، ولا إلى لغة ، فلما اشتغلوا بالحديث وما إليه قدمهم فى ذلك غيرهم من الموالى ، وقريب من ذلك يصح أن يقال فى الشاميين ، وإن كان أكثر اتصالا بالعرب من المصريين[2] .

وهنا نناقش ما جاء فى ضحى الإسلام :

ما الذى قوى الباعث الدينى عند أهل مصر ، وأضعفه عند أهل العراق ؟

(١ ، ٢) المرجع السابق ٢١٦ ، ٢١٧ .

ثم هل يسوغ لنا الفصل بين الدراسات الدينية والدراسات النحوية من حيث قوة الباعث مع أن الباعث على النحو هو المحافظة على القرآن الكريم ؟ .

والمرحوم أحمد أمين يؤكد أن اللغه العربية لم تنتشر فى مصر انتشارها فى العراق ، ثم يقول : وقريب من ذلك يصح أن يقال بالنسبة للشاميين ، فهل الواقع يؤيد ذلك والشام على اتصال وثيق بالجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده ، وبهذا لم يسبق المصريين وحدهم - كما جاء فى ضحى الإسلام بل سبق العراقيين أيضا ؟

السبب الثانى :

يقول الأستاذ محمد طنطاوى فى كتابه : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة (والذى يلوح لنا - والله أعلم بالحقيقة - أن العراق كان دائم الاتصال بالبلاد الحجازية المقدسة والرحلات بينهما متبادلة ، فسمع أهل العراق من الصحابة ومن التابعين أحكام الدين فامتد نظرهم إلى ذلك الأمر الجديد أمر اللغة ، والمحافظة على سلامتها)[1] .

وأقول : إن صح هذا بالنسبة للأمصار الأخرى فلن يصح بالنسبة للشاميين الذين لا يقلون عن العراق - إن لم يزيدوا - فى ذلك الاتصال .

السبب الثالث :

إذا كان الباعث على وضع النحو ما بدا من اللحن كان طبيعيا أن يكون منشؤه بلداً أعجميا ، ولا أنسب لذلك من العراق ، إذ هو مع أعجميته ، ربيب حضارات مختلفة وأهله شغلوا بالعلوم كثيراً قبل أن يتعربوا ، فكانت ثقافتهم الموروثة بجانب الازدهار العلمى الذى ترعرع فى ظلال العباسيين للنحاة واللغويين ، واهتمامهم بهم وبفنهم وإجازتهم إياهم كان حافزاً قويا

---

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .

على النهوض بذلك العلم واستكماله فى رحاب الخلافة بالعراق .

وبهذه المناسبة أقرر أمراً يجب أن يكون فى اعتبارنا عندما نؤرخ لنشأة العلوم ، ذلك أن عاصمة الخلافة كانت قطب الرحى بالنسبة للنشاط الدينى التدوينى والخلفاء وعطاياهم ، وتقديرهم للعلماء والباحثين - كما أسلفنا - كان يجعل الحركة العلمية تلوذ ببغداد .

يقول الأستاذ أحمد أمين : وكانت العادة المتبعة أن ترسل البعثات من جموع الأقطار الإسلامية إلى العراق ، وبخاصة فى بغداد ، كما ترسلها اليوم إلى أوربا ، فحدث أن أرسلت مصر شابين مصريين ، ليتعلما النحو واللغة وما إليها فى بغداد ، فلما وصلا وجدا أن ألمع اسم فى بغداد هو الزجاج فتعلما على يديه ، وكان هذان الشابان هما : ابن ولاد ، وابن النحاس"(١) .

وتأكيداً لهذه النتيجة التى أسلفناها ورأينا فى كلام الأستاذ أحمد أمين ما يؤيدها نرى أن كثيراً من الكتب القيمة ألفت ، والداعى لتأليفها اقتراح من خليفة ، أو إشارة من وزير ، فالإمام مالك ألف الموطأ بالإشارة التى صدرت له من الخليفة المنصور ، وأبو على الفارسى ألف كتابا الإيضاح والتكملة فى النحو ، وأهداهما لعضد الدولة بن بويه ، بل إن العالم من العلماء كان يرى تكميلا لمجده أن يهاجر إلى عاصمة الخلافة ببغداد لينال حظه من الشهرة ومن المال أيضاً .

هذه النتيجة هى التى يدور حولها فى تقديرى - سر سبق العراق للأمصار الإسلامية الأخرى .

بقيت النقطة الثانية : لماذا تأخر الشام عن العراق ومصر والأندلس فى الدراسات النحوية ؟

---

(١) ظهر الإسلام جـ ٢ ص ١٤٢ .

وتبقى علامة استفهام ماثلة أمام أعيننا عن سر تأخر الشام بالذات . فالقرب من الجزيرة والثقافة الموروثة والعجمة وانقسار اللغة كان للشام من ذلك كله أكبر نصيب ، وكان ينبغى له أن يناقش العراق فى النحو إن لم يسبقه .

هل نقول : الخلافة وعاصمة الملك هى السبب ؟ إذا كان كذلك فما بال الشام لم ينتفع بهذا وقد كانت دمشق حاضرة الخلافة الأموية ؟ .

ويصل بنا العجب أقصـــاه عندما نعلم أن الحجاز لم يكن له نصيب فى الدراسات من الدراسات النحوية إذ ذاك مع أنه أصـل الفصحى ، « ومنشأ الفصحاء » .

يقول الأصمعى : أقمت بالمدينة زمناً وما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة وكان بها ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السمر ، وكلاما ينسبه للعرب ، فسقط وذهب علمه وخفيت روايته ، ومن كان بالمدينة أيضاً على المنقب بالجهل ، وضع كتابا فى النحو لم يكن شيئا وأما مكة فكان بها رجل من الموالى يقال له : ابن قسطنطين ، شدا شيئا من النحو ، ووضع كتابا لا يساوى شيئا »[1] .

ثم لماذا تسبق الأندلس مصر فى الدراسات النحوية ، ومصر أقرب إلى الجزيرة وإلى العراق منها ؟ والذى أراه أمامى سبباً مقنعاً يجلو هذه الغوامض أن السياسة واتجاهاتها المختلفة والخلفاء وميولهم العلمية المتباينة كانت سراً وراء هذه النتائج المثيرة .

فالأمويون أغدقوا على الحجاز مالا وثراء دفعهم إلى ترف رخى استناموا معه إلى اللذات وألفوا اللهو والغناء ، وذلك مبلغ نشاطهم فى العلم والثقافة .

---

(١) مراتب النحويين ـ المزهر للسيوطى ـ ترجمة ابن دأب فى معجم الأدباء .

وهناك ظروف خاصة ربطت الأندلسيين بالنحو قبل غيرهم ولسنا هنا بصدد البحث عنها ، وعلى ضوء هذه الحقائق أستطيع أن أخلص إلى الأسباب الآتية التى تكشف لنا سر تأخر الشام فى الدراسات النحوية عن العراق وعن الأقاليم الأخرى التى كان ينبغى أن تتأخر عنه ، وستجد هذه الأسباب راجعة إلى السياسة وظروفها والخلفاء وميولهم .

وهذه هى الأسباب :

١ — قرب المسافة بين الشـــام والعراق وإن كان مثيرا لدهشتنا ، إذ برغمه تأخرت الدراسات النحوية فى الشام لكنه فيما أرى كان سببا فى تأخرها ، إذ دفع هذا القرب الشاميين إلى القعود عن مسايرة العراقيين فى هذا المضمار ، فاكتفوا بمدارسهم ؛ واقتنعوا بما حصلوه منهم ، ولم يحاولوا أن يأتوا بجديد فيه ، وإن كان لأحد منهم جهد فى ذلك — وهو قليل — فقد ذاب فى جهود العراقيين .

٢ دمشق حاضرة الشام كانت حاضرة الملك ، وعاصمة الإسلام فى عهد بنى أمية ، إلا أن الشاميين كانوا على دين خلفائهم الأمويين والأمويون شغفوا بالأدب العربى من ناحية الرواية ، لا من الناحية العلمية ، وشجعوا مجالسه ، وأثاروا حربا من الهجاء بين الشعراء ، صرفوا بها الناس عن السياسة وأثرى بهـا الأدب بينما كان خلفاء بنى العبـاس وأمراؤهم على النقيض يشجعون حركة اللغة والنحو[1] .

٣ — يبدو لى أن هناك عاملا سياسيا وراء انصراف الشام عن النحو الذى انتهت نسبة وضعه إلى أبى الأسود الدؤلى بتوجيهات من الخليفة على ابن أبى طالب ، مما جعل الشاميين يزهدون فيه وقد نبت فى بيئة التشيع .

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٢١٨ .

٤ – وناحية أخرى دولة بنى أمة كانت عربية أعرابية كما يصفها الجاحظ والنحو كان معروفا بأنه صنعة الوالى ، مما جعل الأمويين ينصرفون عنه ، ويصرفون الناس عنه إذ لا حاجة بهم إليه ، ومن ناحية أخرى قاوموا تيار اللحن الذى تسرب إلى ألسنتهم بتوجيه أبنائهم إلى البادية لصيانة ألسنتهم ، على اللفظ الفصيح .

٥ – ثم بعد ذهاب دولة بنى أمية انتقلت العاصمة إلى العراق ، وانتقل معها ما كان للشام من علم وأدب ، ولم يعد للشام فى العصر العباسى منزلتها العلمية والفنية الأولى ، فمن نبغ من الشاميين بعد فى العلم الدينى الذى قد يحمل عليه الزهد ، وإن نبغ فى غير العلم الدينى أحد خرج من الشام إلى العراق يعرض علمه ، وفنه ونبوغه على العراق ، فإنه الوسيلة الوحيدة للظهور ، وحتى أصبح من يتجه للشام فى هذا الوقت ، أو يرضى بالإقامة فيه إنسانا راغباً فى الزهد .

يقول الأستاذ أحمد أمين : وتظاهر العلماء بالغلبة ، وحبهم التقرب من العظماء من الأمور التى أوجبت على الغزالى تركه لمنصبه مدرساً فى المدرسة النظامية وتزهده فى دمشق .[1] .

وإذا لم يوجد النشاط النحوى فى عهد الخلافة الأموية فقد تضاءلت أسباب وجوده بصورة أبرز فى عهد العباسيين .

هذا ولكون الشاميين تأخروا عن المصريين والمغاربة فى دراسة النحو وقلت وفادتهم لدراسته ولم يكن لهم فيه شأن يذكر أهملهم الزبيدى فى طبقات النحويين ، بينما اختص نحاة مصر بعنوان خاص بهم بعض البصريين والكوفيين ، وكذلك السيوطى فى حسن المحاضرة أهمل نحاة الشام بينما عقد لنحاة مصر مبحثاً فى أواخر الجزء الأول .

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ١٢٢ .

الفصل الثاني

من أواخر القرن الثالث حتى سقوط بغداد

في النصف الثاني من القرن الثالث ضعف سلطان الدولة العباسية في بغداد ، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة ، وتعددت العواصم وتعدد الأمراء ، وبالتالي تعددت رحلات العلماء والأدباء ، فمنهم من كان يقصد القاهرة ، ومنهم من كان يقصد حلب واشتهر في هذا العصر من الأمراء البويهيون في العراق ، والفاطميون وقبلهم الإخشيد في القاهرة ، والحمدانيون في حلب والجزيرة ، كما قال الشاعر :

تسقط الطير حيث يلتقط الحـ ـب وتغشى منـــازل الكرماء

وظل الحمدانيون في حلب قبلة الأنظار ، ومحط الآمال ، وسيف الدولة الحمداني كان مجلسه مشهوداً مملوءاً بالشعراء والأدباء ، وفيه بعض الفلاسفة ، كما نرى فيه من النحويين ابن خالويه[1] .

ومن هنا وجدنا النحاة يتجهون إلى بلاد الشام ، يقيمون بها فترة أثناء عودتهم إلى مصر والأندلس من العراق ، أو أثناء ذهابهم إلى العراق من مصر والأندلس ، ومنهم كان يقصد الشام وحلب بالذات طالباً نوال آل حمدان ، وإليك الأمثلة :

١ ـ هارون بن موسى بن شريك القارىء ، النحوي ، أقام بالشام فترة ، ووصفه السيوطي بأنه كان نحويا ، وأنه كان عالماً بالقراءات السبع ، توفي سنة ٢٩١ هـ[2] .

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) البغية جـ ٢ ص ٣٢٠ .

٢ ـ يموت بن المزرع بن أخت الجاحظ ، ذكره الزبيدى فى نحاة مصر ، وقيل : إنه مات بدمشق بعد أن خرج من مصر سنة ٣٠٤ هـ[١] .

٣ ـ الأخفش الصغير : قال المرزبانى : لم يكن الأخفش بالمتسع فى الرواية للأشعار والعلم بالنحو وما علمته صنف فيه شيئا ، دخل مصر سنة ٢٨٧ هـ ، وخرج منها إلى حلب سنة ٣٠٦ هـ ، ضيفاً على ابن مقلة ، وتوفى ببغداد سنة ٣١٥ هـ[٢] .

٤ ـ الزجاجى : سكن بدمشق ، وانتفع الناس بعلمه ، وتخرجوا عليه ، وفى البغية : أملى وحدث بدمشق عن الزجاج ، ونفطويه وابن دريد ، وأبو بكر ابن الأنبارى ، والأخفش الصغير وغيرهم ، وصنف الجمل فى النحو بمكة ، اختلف فى شهر وفاته بين رجب ورمضان وفى مكان وفاته بين دمشق وطبرية ، وفى عام وفاته بين سنة ٣٢٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ هـ والأصح فى دمشق شهر رجب[٣] .

٥ ـ الفارسى : كان إمام النحو فى وقته ، وزار البلاد الشامية ، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه عليها عام ٣٤٦ هـ ، ثم انتقل إلى بلاد فارس[٤] .

٦ ـ ابن خالويه : أصله من همذان ، لكنه دخل بغداد ، وأدرك جلة العلماء وانتقل إلى الشام ، واستوطن حلب ، وصار مبرزاً فى كل فنون الأدب ، وارتحل إليه الطلاب من الآفاق ، وكان علما فى النحو اللغوى . وآل حمدان كانوا يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه ، توفى سنة ٣٧٠ هـ .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ .
(٢) وفيات الأعيان ، وبغية الوعاة .
(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣١٧ ، وبغية الوعاة جـ ٢ ص ٧٧ .
(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٦٢ .

٧ ـ الحسين بن محمد أبو الفرج النحوى الدمشقى ، المعروف بالمستور ، وصفه صاحب أنباه الرواة بأنه نحوى ودمشقى، ولم يذكر مدى أثره ونشاطه توفى سنة ٣٩٢ هـ .

٨ ـ المفضل بن محمد بن مسعر بن محمد البصرى أبو المحاسن : يقول صاحب البغية : أنه حدث بدمشق ، وولى قضاء بعلبك ، وألف تاريخا للنحاة ، توفى سنة ٤٤٢ هـ[١] .

٩ ـ زيد بن على عبد الله الفارسى ، أبو القاسم الفسوى اللغوى ، شرح الإيضاح وحماسة أبى تمام ، وأقرأ النحو بحلب ، وروى بها الإيضاح عن أبى الحسين بن أخت الفارسى عن خاله ، وسكن دمشق ، وأقرأ بها ، ومات بطرابلس سنة ٤٦٨ هـ[٢] .

١٠ ـ على بن طاهر بن جعفر بن عبد الله أبو الحسن القيسى السلمى ، النحوى الدمشقى . يقول صاحب أنباه الرواة : كان له حلقة بجامع دمشق يعلم فيها العربية ، توفى سنة ٥٠٠ هـ[٣] .

١١ ـ التبريزى : يقول ابن خلكان : قضى معظم حياته بالشام ، وزار مصر فى شبابه وتلقى من ابن بابشاذ شيئا من اللغة ، ثم عاد لبغداد واستوطنها حتى مات ، توفى سنة ٥٠٢[٤] .

١٢ ـ سلامة بن غياض النحوى الشامى . يقول صاحب أنباه الرواة : قضى معظم حياته بحلب ، ومات بها سنة ٥٣٤ هـ[٥] .

---

(١) بغية الوعاة جـ ٢ ص ٢٩٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٥١٢ .
(٣) أنباه الرواة جـ ٢ ص ٢٨٣ .
(٤) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٣٨ .
(٥) أنباه الرواة جـ ٣ ص ٦٧ .

١٣ ـ على بن الحسن بن الحسن الكلامى الدمشقى : كان له حلقة كبيرة بالجامع لإقراء القرآن والفقه والنحو ، توفى سنة ٢٦٢ هـ[1] .

١٤ ـ ملك النحاة يقول عنه العماد فى الخريدة : كان من الفضلاء ، وحكى ما جرى بينهما من المكاتبات بدمشق ، وبرع فى النحو حتى صار أنحى طبقته ، وكان فصيحا ، ذكيا .

فى أواخر حياته دخل الشام ، واستوطن دمشق ، حتى توفى بها يوم الثلاثاء ٨ من شوال سنة ٥٦٨ هـ[2] .

ونظرة لهؤلاء الذين كان لهم بالشام صلة نستطيع أن نتبين مدى النشاط النحوى فى هذه الفترة فى بلاد الشام ، ونركز ذلك فى أمور :

١ ـ معظم هذه الشخصيات مرت بالشام مروراً عابراً أو زارته زيارة سريعة لرغبة طارئة طمعاً فى جائزة ، أو عطاء من بنى حمدان ، وهم بهذا لم يبذلوا نشاطا نحويا يذكر فى بلاد الشام ، ولم يكونوا مدرسة ، أو يوجدوا حركة علمية نحوية مثل : هارون بن موسى ، يموت بن المزرع ، والأخفش الصغير ، والفارسى ، والمستور ، وسلامة بن غياض . وكل ما يذكر لهم من نشاط مجرد مجالس أو مناظرات ، كما حدث بين أبى على الفارسى ، والمتنبى فى مجلس سيف الدولة .

٢ ـ من هؤلاء العلماء من لم يتفرغ للنحو وحده ، بل كان أديبا أو فقيها ، مثل ابن خالويه وأبى المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر .

٣ ـ أما الذين أثاروا حركة نحوية ، وكان لهم نشاط تعليمى واسع ، وتصدروا للإفادة ، لكن لم يكونوا مدرسة خاصة ذات اتجاه خاص ، بل

---

(١) بغية الوعاة جـ ٢ ص ١٥٥ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧١ .

كانت تبعيتهم لشيوخهم الذين تلقـــوا عنهم ، فهم كانوا بين بصريين أو كوفيين ، ومنهم الزجاجى الذى يعتبر رائداً للدراسات النحوية فى الشام والذى روى للشاميين آراء أئمة النحو ، واتجاهاتهم كما أسلفنا ، ومنهم الفارسى وابن خالويه وعلى بن طاهر بن جعفر السلمى النحوى الدمشقى ، وكذلك ملك النحاة الذى قال عنه العماد : إنه برع فى النحو حتى صار أنحى طبقته ، وتنقل فى طلب العلم ، دخل الشام ، واستوطن دمشق ، توفى سنة ٥٦٨ هـ .

٤ - من هنا نستطيع أن نقرر أن الشام لم تتكون له فى هذه الفترة الشخصية النحوية المتكاملة أو حتى لم توضع أسس لمدرسة نحوية شامية مستقلة ، وكل ما كان فى هذه الفترة مجرد دراسات ومحاضرات ومناظرات ، أثارها العلماء الوافدون أو المارون ، وهذا كله تابع للشخصية السياسية لأن الشام أو معظمها كانت مرتبطة سياسيا بمصر .

الفصل الثالث

النحو فى الشام بعد سقوط بغداد

فى القرن السادس تعرض العالم الإسلامى لعدوان من الشرق ممثل فى التتار وعدوان من الغرب ممثل فى الصليبيين ، والشام كان أكثر الأقاليم الإسلامية تعرضاً لهذه الأخطار ؛ ولذلك تعرض لقلاقل واضطرابات من عدوان الصليبيين أولا حتى هيأ الله له صلاح الدين الأيوبى ، ثم لتخريب التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامى . وعبروا الشام ، وصدتهم مصر عند عين جالوت .

وكان الشام فى عهد الأيوبيين تابعاً لمصر ، فذابت شخصيته فيها ، لا سيما أن كثيراً من العلماء تركوا الشام ، واختاروا مصر وطناً لهم يحميهم من العدوان ، وفى هذه الفترة ارتحل إلى القطرين فئة من نحاة المغرب . والمشتغلون بالنحو فى هذا العهد ، وإن كثروا نسبياً إلا أنهم كانوا قليلى العدد ، ولم تطل أيامهم (١) والشام كان أقل نصيباً من مصر فى هذه الدراسات لما اعتراه من اضطرابات وفتن ولما أنهكه من حروب ، ومن ناحية أخرى تبعيته السياسية لمصر وذوبان شخصيته فيها .

وبرغم أن فرص نمو النشاط النحوى فى هذه الفترة كانت أقل ، إلا أنه وجدت دراسات نحوية ، أو بعبارة أدق شاعت الدراسات وانتشرت ووجد من أعلام الشام وأبنائه من نشأوا على أرضه ، وكان فيه وفياتهم ونبغوا فى الدراسات النحوية ، وخلفوا فيه تراثا قيما .

ومن الكتب النحوية التى تهافت عليها أبناء الشام ، وأكبوا على حفظها ودراستها وشرحها ، والتعليق عليها (المفصل) للزمخشرى ، فالسخاوى شرح

---

(١) نشأة النحو ص ١٦٥ .

المفصل فى أربع مجلدات ، وأبو البقاء يعيش بن على بن يعيش شرح المفصل أيضاً مبسوطاً، وشهاب الدين الدمشقى المشهور بأبى شامة، والمولود بدمشق، ألف منظومته لمفصل الزمخشرى[1] وابن الحاجب ألف كتابه الإيضاح شرح به المفصل أيضا .

ومما يدل على منزلة المفصل فى بلاد الشام ، وعلو شأنه فى هذه الفترة ما يقوله ابن خلكان عن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، صاحب دمشق . قيل : إنه شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار، وخلعة لحفظه لهذا السبب جماعة ورأيت بعضهم بدمشق والناس يقولون : إنه كان سبب حفظهم له هذا . وقيل : إنه لما توفى كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره ، وبعضهم إلى أثنائه وهم على قدر أوقات شروعهم فيه ، ولم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره .

ومما يؤثر عن الملك عيسى السابق صاحب دمشق أنه قرأ على الكندى النحوى المشهور فى عصره كتاب سيبويه وشرحه لابن درستويه ، وقرأ عليه إيضاح الفارسى أيضاً .

وكان لجمل الزجاجى منزلة كبيرة ، ونالت منهم اهتماماً بالغاً ، وتولوها بالشرح والدراسة .

ويخيل إلى أن حلب كانت أكثر ازدهاراً وأعظم حظاً من الدراسات النحوية من دمشق ، فمعظم النحاة عاشوا أو قضوا جانباً كبيراً من حياتهم فى حلب ، حتى زوار الشام كانت حلب غايتهم ، ولعل مرجع ذلك - فى هذه الفترة - ما بلغته من جاه وسلطان .

يقول ابن خلكان: ولما وصلت إلى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف

---

(١) بغية الوعاة ج ٢ .

وكان دخولي إليها يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة ٦٢٦ هـ ، وهى إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين[١] .

وإليك صورة للحركة العلمية فى هذه الفترة ، وتعريفاً بأشهر النحاة :

١ — أبو اليمن بن الحسن الكندى ، الملقب بتاج الدين :

مولده ونشأته ببغداد ، وسافر منها فى شبابه سنة ٥٦٣ هـ ، واستوطن حلب مدة تلقى من ابن الشجرى ، وابن الخشاب ، ثم انتقل إلى دمشق ، وصحب الأمير عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاه ، وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب واختص به ، وتقدم عنده ، وسافر فى صحبته إلى الديار المصرية ، واقتنى من كتبها كل نفيس وعاد إلى دمشق ، واستوطنها ، وقصده الناس وأخذوا عنه ، وتوفى يوم الاثنين ١٣ من شوال سنة ٦١٣ بدمشق[٢] .

ومن تلاميذه الذين تلقوا النحو على يديه :

١ — أحمد بن على بن مقبل أبو عباس الأزدى المهلبى . قال الذهبى : تلقى النحو بدمشق من أبى اليمن الكندى ، نظم الإيضاح والتكملة للفارسى توفى سنة ٦٤٤ هـ[٣] .

٢ — شرف الدين أبو محمد ، النحوى ، الكاتب . ولد بدمشق ، وأخذ عن أبى اليمن الكندى وتوفى سنة ٦٦٢ هـ بحماة[٤] .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ترجمة موفق الدين بن يعيش .

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص ٨٧ - ٩٠، وبغية الوعاة جـ ١ ص ٥٧٠-٥٧٣ .

(٣) بغية جـ ١ ص ٣٤٨ .

(٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٥ .

٢ — ابن معط :

كان أحد أئمة النحو فى عصره ؛ وسكن دمشق زمانا طويلا ، وأقبل عليه خلق كثير ، وانتفعوا بعلمه ، وصنف تصانيف مفيدة ، ثم إن الملك الكامل أرغبه فى الانتقال إلى مصر فسافر إليها ، وتصدر بالجامع العتيق بمصر لإقراء الأدب وقرر له على ذلك راتباً وظل بمصر إلى أن توفى سنة ٦٢٨ هـ .

٣ — السخاوى :

أبو الحسن على بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد السخاوى .

نسبة إلى سخا من أعمال الغربية ، نسبة غير قياسية ، والقياس سخوى . مولده ونشأته وتعليمه بمصر ، ثم انتقل إلى مدينة دمشق ، وتقدم بها على علمائها واشتهر ، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم ، وشرح المفصل للزمخشرى فى أربع مجلدات ، وشرح القصيدة الشاطبية فى القراءات ، وكان قد قرأها على ناظمها وله خطب وأشعار ، ورأيته[1] بدمشق والناس يزدحمون عليه فى الجامع لأجل القراءة ، ولم يزل مواظبا على وظيفته إلى أن توفى بدمشق ليلة الأحد ، ثانى عشر من جمادى الآخر سنة ٦٤٣ هـ وقد نيف على تسعين سنة[2] .

٤ — ابن يعيش :

أبو البقاء موفق الدين يعيش بن على بن يعيش الموصلى الأصل ، حلبى المولد والنشأة والوفاة . قرأ النحو على أبى السخاء ، فتيان الحلبى ، وأبى العباس المغربى ، والفيروزى ، وكان فاضلا ، ماهراً فى النحو والتصريف .

رحل من حلب فى صدر عمره ، قاصداً بغداد ، ليدرك أبا البركات عبد الرحمن الأنبارى ، فلما وصل إلى الموصل بلغه خبر وفاته ، فأقام بها مدة ،

---

(١) الكلام على لسان ابن خلكان .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٣٦ وبغية الوعاة جـ ٢ ص ٣٥١ .

وسمع الحديث بها ، ثم رحل إلى حلب ، ولما عزم على التصدر للإقراء سافر إلى دمشق واجتمع بالكندى ، وكانت بينهما مجالسة نذكرها فيما بعد :

يقول ابن خلكان : وكان الشيخ موفق الدين المذكور شيخ الجماعة فى الأدب لم يكن فيهم مثله ، فشرعت فى القراءة عليه ، وكان يقرئ بجامعها فى المقصورة الشمالية بعد العصر ، وبين الصلاتين بالمدرسة الرواحية ، وكان عنده جماعة قد تميزوا به ، وهم ملازمون مجلسه ، لا يفارقونه ، وابتدأت بكتاب اللمع لابن جنى فقرأت عليه معظمه ، مع سماعى لدروس الجماعة الحاضرين ، وما أتممته إلا على غيره لعذر اقتضى ذلك توفى بحلب سحر الخامس والعشرين من جمادى الأولى ٦٤٣ هـ .

٥ — ابن الحاجب :

مصرى مولداً ، ونشأة ، ووفاة ، ولد بإسنا سنة ٥٧٠ هـ وتوفى بالإسكندرية يوم الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ٦٤٦ هـ .

قضى شطراً كبيراً من عمره فى دمشق ، ودرس بجامعها فى زاوية المالكية وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، التزم الدروس ، وتبحر فى الفنون ، وبخاصة علم العربية[1] وصنف مختصراً فى مذهبه ، ومقدمة وجيزة فى النحو سماها : « الكافية » وأخرى فى التصريف سماها « الشافية » وشرح المقدمتين[2] .

٦ — أبو شامة :

عبد الرحمن بن إسماعيل : شهاب الدين الدمشقى ، الشافعى ، ولد بدمشق وتلقى القراءات على العالم السخاوى ، وسمع بالإسكندرية من عيسى بن عبد العزيز

---

(١) علم النحو ، ولعله سمى بهذا لأن به ضبطها وأحكامها وصيانتها ولاسيما أنه نشأ فى كنف الموالى .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤١٤ .

وغيره وأتقن الحديث ، ومن مؤلفاته نظم المفصل للزمخشري ، ومختصر ابن عساكر توفى سنة ٦٦٥ هـ[1] .

٧ — ابن مالك :

محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك ، نزيل دمشق ، إمام النحو ، وصاحب الألفية ، وحافظ اللغة ، وكان إماما فى القراءات وعللها ، وله مؤلفات فى النحو كثيرة ومشهورة ، منها الألفية ، والتسهيل ، والكافية الشافية ، توفى سنة ٦٧٢ هـ[2] .

٨ — محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سحبان :

أصله أندلسى ، استقر به المقام أخيرا فى دمشق ، تخرج به جمع منهم : ابن العطار وابن تيمية ، والذهبى ، والمزى ، والقطب الحلبى ، وابن الخباز ، ألف شرحا جليلا لألفية ابن معط ، توفى سنة ٦٨٥ هـ .

٩ — ابن الناظم :

محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك . قال الصفدى : كان إماما فهما ذكيا ، حاد الخاطر ، إماما فى النحو ، توفى بدمشق سنة ٦٨٦ هـ .

من المجالس النحوية فى هذه الفترة مجالسة بين الكندى وابن يعيش :

عندما سافر موفق الدين بن يعيش إلى دمشق ، واجتمع بالشيخ تاج الدين أبى اليمن زيد بن الحسن الكندى ، الإمام المشهور ، فسأله عن مواضع مشكلة فى العربية ، وعن إعراب ما ذكره أبو محمد الحريرى فى المقامة العاشرة المعروفة بالرحبية ، وهو قوله فى أواخرها : حتى إذا لألأ الأفق ذنب سرحان وآن انبلاج الفجر وحان فاستبهم جواب هذا المكان على الكندى : هل

(١) المرجع السابق جـ ٢ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٠ — ١٤٣ .

الأفق وذنب السرحان مرفوعان أو منصوبان ، أو الأفق مرفوع وذنب السرحان منصوب ، أو على العكس ؟ .

ثم قال له الكندى ، قد علمت قصدك ، وأنك أردت إعلامى بمكانتك من هذا العلم ، وكتب له خطة بمدحه ، والثناء عليه ، ووصف تقدمه فى الفن الأدبى .

يقول ابن خلكان : وهذه المسألة يجوز فيها الأمور الأربعة ، والمختار نصب الأفق ، ورفع ذنب السرحان .

بعد هذا العرض الذى قدمناه عن النشاط النحوى فى هذه الفترة نستطيع أن نقول : إن هذه الفترة - فى الشام - مع سوء الأحوال بها اتسع فيها نشاط النحاة إلى حد ما ، وجلسوا للتعليم والإفادة ، والبحث والدراسة والتأليف ، فهى لهذا تعتبر أنضج فترات النحو فى تاريخ الشام مع ملاحظة ما أسلفناه من أنه لم تتكون مدرسة ، ولم يوجد اتجاه معين فى النحو .

الخاتمـــة

ملاحظات ونتـائج :

من خلال هذه الدراسة التى تتبعت النشاط النحوى فى الشام منذ نشأة النحو حتى نهاية القرن السابع تقريباً تظهر لنا عدة ملاحظات ونتائج ذات بال ، نسجلها فيما يلى :

١ ـ لم يكن للشام أثر عميق فى نهضة الدراسات النحوية ، ولم يتكون فيه مدرسة نحوية ذات شخصية مستقلة .

٢ ـ معظم نحاة الشام كانوا أدباء ، أو تتغلب عليهم النزعة الأدبية ونظرة عارضة لهؤلاء الأعلام الذين ترجمنا لهم ، توضح صدق هذه الحقيقة .

٣ ـ لأجل الترابط الوثيق الذى ربط مصر بالشام معظم فترات التاريخ نجد كثيرا من النحاة قضوا حياتهم بين مصر والشام ، وإليك مثلا : السخاوى ، وابن معط ، وابن الحاجب وبعضهم من الأندلس مثل ابن سحبان وابن مالك .

٤ ـ الكتب التى لاقت اهتمام الشاميين ، وحظيت بعنايتهم ، ونالت شهرة بينهم : مفصل ابن يعيش ، وجمل الزجاجى .

٥ ـ مراكز النشاط النحوى فى الشام : كانت دمشق وحلب .

٦ ـ وهكذا كان نشاط النحاة فى الشام : دراسة وشرح وتعليم ، دون ابتكار أو إضافة جديد إليه ، ولا نجد للشاميين رأيا معينا امتازوا به كالأندلسيين ـ مثلا ـ أو المغاربة ، ويزداد النشاط النحوى فيه إذا وجد الأمير المشجع كسيف الدولة الحمدانى ، والملك عيسى الأيوبى إذا توافر الأمن والهدوء أيضاً ، ولا سيما بعد أن استأثر المماليك بحكم مصر والشام وأكرموا العلماء وأعطوهم الجوائز ، وأتيحت لهم الفرصة ، ليعيدوا بناء الثقافة الإسلامية من جديد بعد أن حطمها التتار فى بغداد .

٧ ـ مذاهب هؤلاء النحاة كمذاهب شيوخهم من البصريين والكوفيين والبغداديين وتغلب عليهم أخيراً المذهب الأندلسي ، تلمس ذلك من رواج ألفية ابن مالك بين المصريين والشاميين .

هذه هي النتائج التي وصلت إليها ـ بعد البحث ـ عن النشاط النحوي في الشام، والملابسات التي أحاطت به، ومبلغ نشاطهم فيه والحمد لله رب العالمين .

الباحث

د . السيد رزق الطويل

الأستاذ المساعد بالكلية

والمعار إلى جامعة أم القرى

بمكة المكرمة

أهم مراجع هذا البحث

مرتبة أبجديا

١ - أنباه الرواة على أنباه النحاة : للقفطى

٢ - بغية الوعاة : للسيوطى

٣ - ضحى الإسلام : أحمد أمين

٤ - ظهر الإسلام : أحمد أمين

٥ - مراتب النحويين : أبو الطيب اللغوى

٦ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : الشيخ محمد الطنطاوى

٧ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلكان